ردمد ISSN 1112-4237 الايداع القانوني Depot légal868-2003

مكانة وعلاقة العلامة أبو عبد الله محمدالشريف التلمساني(710-771هـ/1310-1369م)بالسلطة الزمنية

دة. فوزية كرراز
قسم العلوم الإنسانية/ جامعة معسكر
fouzia.krarraz@univ-mascara.dz

تاريخ الإرسال:2018/07/07 تاريخ القبول: 2018/12/22

الملخص:

نقف في هذا المقال عند أحد أبرز رجالات تلمسان الزيانية، وأحد مخلفين بيت من بيوتاتها العلمية، فكان الرجل الأول في أسرة الشريف بتلمسان، التي استطاعت فرض وجودها بفضل أبنائها العلماء بين بقية أشهر الأسر العلمية التي عرفتها تلمسان والغرب الإسلامي.

على الرغم من أن عالمنا عاصر أكبر علماء عصره الذين جمعوا بين الاجتهاد العلمي والنشاط السياسي أمثال عبد الرحمن بن خلدون ولسان الدين بن الخطيب وغيرهم، إلا أنهم لم يحجبوا عنه مكانته العلمية عند السلطات الزمنية بالمغرب الإسلامي، فتنافست على استقطابه والانتفاع بعلمه، وكذا محاولة توظيفه في السفارات السياسية، ليس لأنه رجل

ردمد ISSN 1112-4237 الايداع القانوني Depot légal868-2003

سياسة، وإنما لنسبه الشريف ومكانته العلمية ووقاره لدى العامة والخاصة.

الكلمات المفتاحية: أسرة الشريف؛ الفقه؛ السلطة الدينية؛ السلطة الزمنية؛ الزيانيون؛ المرينيون

Abstract :

Our attempt Within this paper, is to shed the light on one of the main and prominent scholars of Tlemcen Zayani, who sets one of the scientific houses there, he was the first man in the family of Sharif Tlemcen, which imposed itself among other well-known families in Telemcen and the west at whole, due to its sons which were scientists and scholars.

Though our scholar was contemporaneous with the greatest scholars of his time, who had combined both scientific efforts and political activity such as Abdul Rahman Ibn Khaldun and Lissan din Ibn Alkhatib and others, his scientific status remained strong at the temporal authorities in the Islamic Maghreb, so they competed to won him and benefits from his knowledge, as well as trying to employ him in political embassies , because of his honor, scientific status, dignity and decency and not because he was a man of politics.

Keywords: family of Sharif; jurisprudence(Fikh); religious authority ; temporal authority, Zayyanids; Marinids

ردمد ISSN 1112-4237 الايداع القانوني Depot légal868-2003

تقديم:

حفلت تلمسان في عهد بني زيان برقي حضاري على جميع الأصعدة، جعلها في مصاف حواضر العالم الإسلامي المعاصرة لها، ودون شك كانت لظاهرة البيوتات العلمية التي عرفتها الدور الأهم والأكبر في هذا الرقي، أمثال أسرة ابن الخطيب وأسرة المقري والمرازقة وإبنا الإمام وابن هدية، وأسرة الشريف والقائمة طويلة. ودون شك كان لهذه الأسر الأثر الايجابي في الدفع بحضارة الزيانيين قدما للأمام؛ بحيث لم تقتصر على الدور العلمي الذي يعتبر أساس بناء الحضارات، وإنما تجاوزه إلى تقلد الوظائف والمهام السياسية، لا سيما وأن الوضع لم يكن مستقرا بين دول الغرب الإسلامي آنذاك، وقد أسهم فيه العلماء إلى حد كبير. فهل كان لبيت الشريف الدور الفعال في توجيه سياسة البلاط وتسطيرها بشكل أو بآخر على غرار علماء عصره أم اكتفى بالجانب العلمي فقط؟

يعتبر أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني (710-771هـ/1310-1369م)[1] تلمساني المولد والنشأة[1] أصل هذا

1-اختلفت المصادر التي ترجمت له في شجرة النسب، فكان هو: "محمد بن أحمد بن علي بن محمد بن القاسم بن ميمون بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب هكذا بخط ولده عبد الله" التنبكتي، **كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج**، دراسة وتح محمد مطيع، المغرب،1421-2000، ج2، ص70. محمد بن أحمد بن علي بن يحي بن علي بن محمد بن القاسم بن محمود بن ميمون بن أحمد علي بن عبد الله بن عمر بن إدريس بن ادريس عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب هكذا بخط ولده عبد الله" التنبكتي، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، تقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات دار الكتاب، طرابلس، ط2، 200، ص430 أما عند ابن مريم فهو:"محمد بن أحمد بن

ردمد ISSN 1112-4237 الايداع القانوني Depot légal868-2003

البيت العلمي بتلمسان، زامن أكبر علماء عصره الذين زاوجوا بين العلم والسياسة، أمثال لسان الدين بن الخطيب (713-776هـ/1313-1374م) وابن مرزوق الحفيد(711-781هـ/1311-1379م) وعبد الرحمن بن خلدون(732-/808هـ/1332-1406م)[2]، ومع ذلك لم يحجب عنه هؤلاء مكانته العلمية الرفيعة وحظوته عند الخاصة والعامة، فقد كان حسب شهادة معاصريه من العلماء" إمام المغرب قاطبة"[3] "وانتهت إليه إمامة المالكية"[4]، وعنه يقول ابن مرزوق: "هو شيخ شيوخنا، أعلم أهل عصره بإجماع"[5].

علي بن يحي بن محمد بن القاسم بن حمود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبيد بن عمر بن أدريس بن أدريس بن عبدالله بن حسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه هكذا وجد نسبه بخط ولده عبد الله". **البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان**، تح عبد القادر بوباية، دار الكتب العربية بيروت، 2014، ص311 لكن المتفق عليه هو الشريف الحسيني التلمساني. ابن خلدون، **الرحلة ضمن العبر**، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2003، ص3022. التنبكتي، **كفاية المحتاج**، ص70. ابن مريم، المصدر السابق، ص ص311. ابن قنفد القسنطيني، **الوفيات**، تح عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط4، 1983، ص368. الزركشي، **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، تح تع محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، بلا ت، 105

1- ابن خلدون، المصدر السابق، ص3022. التنبكتي، الكفاية، ص70. ابن مريم، المصدر السابق، ص312.

3- تفاصيل أكثر عن المسار السياسي لهؤلاء تراجع سيرهم بكتب التراجم والتاريخ العام، المؤرخة للدول: الزيانية والحفصية والمرينية.

3 -التنبكتي، كفاية المحتاج، ص71

4-التنبكتي، كفاية المحتاج، ص72/ ابن مريم، البستان، ص 317

5-التنبكتي، كفاية المحتاج، ص71.

ردمد ISSN 1112-4237 الايداع القانوني Depot légal868-2003

وعلى الرغم من أنه عاش فترة عصيبة من تاريخ الدولة الزيانية ودول الغرب الإسلامي إجمالا، وفي فترة التجأ فيها كبار علماء عصره للسلطة الغالبة والانضواء تحتها، تاركين ميدان العلم سعيا وراء المناصب السياسية العالية والجاه ووصلوا القمة وعرفوا تقلبات الدهر، فابتلوا بالسجن بعد المجد وعرفوا النكبة بعد الحظوة، إلا أنه لم ينساق في ذات التيار على الرغم من حظوته بالبلاط الزياني والمريني.

بتتبعنا لمراحل حياة أبي عبد الله الشريف، نجده كمعاصريه من العلماء الذين لم يكونوا يعرفون حدودا بين أقطار الغرب الإسلامي، لكنه شد عن بعضهم في القيام بالرحلات طلبا للرزق والجاه والاقتراب من السلطة وإنما طالبا للعلم؛ فرحل إلى تونس سنة 740هـ/1339م لأجل ملاقاة العلامة الإمام محمد ابن عبد السلام[1]، في فترة كانت الرحلة إلى هذا الأخير من الآفاق[2]، مع أن خروجه لها أمر أسف له ابن الخطيب فقال: "كرهت دخول الشريف لتونس لفراقه لكن هي مزية لمعرفة أهل إفريقية أبرز علماء المغرب مثله"[3]. ورحل إلى فاس بقصد ملاقاة الآبلي(681- 756هـ/1282-1355م)* والأخذ عنه، وأخذ عن إبنه الإمام هناك[4] وكان ذلك قبل سنة

1- التنبكتي، كفاية المحتاج، ص71.، ابن مريم، البستان، ص313.

2- ابن مريم، البستان، ص 318.

3- نفسه، ص322.

* هذا الأخير توجه إلى فاس فرارا من صاحب تلمسان أبي حمو موسى بن عثمان في سنة 710هـ. ابن مرزوق ، المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، تح ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص266.

4- يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك من بني عبد الواد، تق تح تع عبد

ردمد ISSN 1112-4237 الايداع القانوني Depot légal868-2003

746هـ/1345م، لأنه حضر مجلس الشيخ عبد المؤمن الجاناتي المتوفي في السنة المذكورة[1].

وبالفعل لما نتتبع مسار وعلاقة هذا الأخير بسلطات الغرب الإسلامي آنذاك، لا نجده تقلد منصبا قط في بلاط تلمسان ولا ببلاط فاس أو تونس أو الأندلس، مع أن له من المقومات العلمية والعقلية والجاه وقوة الشخصية ما يؤهله أكثر من غيره في تقلدها، ومع ذلك" لم يتولى لهم أمرا من أمور الدنيا"[2]، ولم يتدلل للسلاطين لقضاء حوائجه[3]، وبالتالي لم يكن رجل بلاط بل رجل علم منشغلا عن أمور الدنيا وعن السياسة والجاه.

وعلى الرغم من مواقفه الصارمة والصلبة اتجاه السلطة، إلا أن التاريخ سجل له مواقف سياسية مشرفة دون تقلده المناصب، أداها كانت رغبة منه باعتبارها أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر، ولتقصيها ارتأينا أن نترصد مكانته ومواقفه في نقطتين أساسيتين أولهما علاقته بالسلاطين الزيانين، وثانيهما بسلاطين الدولة المرينية.

1-<u>مكانته عند سلاطين الدولة الزيانية:</u>

يعتبر البلاط الزياني الأصل في حياة الفقيه أبي عبد الله الشريف باعتباره تلمساني المولد والنشأة كما سبق ذكره، الواضح أن حياته هناك كانت هادئة إلى حد بعيد، فكان ذو

الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية للنشر، الجزائر، 1980، ج1، 120

1-ابن مريم، المصدر السابق، ص328.

2- التنبكتي، كفاية المحتاج، ص 78، ابن مريم، البستان، ص328

3- ابن مريم، المصدر السابق، ص327

ردمد ISSN 1112-4237 الايداع القانوني Depot légal868-2003

حظوة كبيرة عند السلاطين، مبجلا ومعظما عندهم وعند بقية الخاصة والعلماء والعامة بالمدينة [1].

يحسن بنا الإشارة إلى أن الفقيه أبي عبد الله الشريف عاصر أربعة سلاطين للدولة الزيانية وهم:أبو حمو موسى الأول(707-718هـ/1307-1318م)، وهو رابع حكام الدولة، والسلطان أبو تاشفين بن موسى(718-749هـ/ 1307-1348م)، ثم عهد الأخوين أبي سعيد عثمان وثابت ابنا أبي زيد بن زكرياء بن يغمراسن(749-753هـ/1348-1352م). ثم عهد السلطان أبو حمو موسى الثاني(760-791هـ/1358-1388م)، بعدما استرجع هذا الأخير تلمسان من قبضة المرنيين.

ففي عهد السلطان أبو حمو موسى الأول، وخليفته أبو تاشفين بن موسى، فإن المصادر التاريخية لا تأتي على ذكر العلامة البتة، وهو أمر طبيعي لأنه كان لا زال في طور تحصيله العلمي، علما أنه بدأ الإقراء وهو ابن إحدى عشرة سنة[2]، وخلالها عهدهما قام برحلاته العلمية نحو تونس وفاس المشار إليها آنفا، ولم يظهر الرغبة في التقرب من السلطة ولم تكن له مآرب فيها، وبالتالي نعتقد خلال عصر هذان الحاكمان قضاها في تحصيل العلم فقط.

وفرض نفسه في الكتابة التاريخية ولو بشكل محتشم في عهد السلطان أبو سعيد عثمان بن عبد الرحمن(749-753هـ/1348-1352م)، الذي كان "يحبه حبا عظيما ولا يخاطبه

1- التنبكتي، كفاية المحتاج، ص 77

2- التنبكتي، كفاية المحتاج، ص 73.

ردمد ISSN 1112-4237 الايداع القانوني Depot légal868-2003

إلا بسيدي"[1]، بل كان يثق فيه ثقة كبيرة؛ إذ أأتمنه على وديعة لابنه ورفضها، فأودعها عند غيره من أعيان تلمسان وأشهده عليها[2] - كان أمر الوديعة سبب محنته بالبلاط المريني- وهذا لأنه عرف"بأمانته وحفظه للسر، مالكا لزمام نفسه، ويثق به القريب والبعيد"[3]، وبالتالي علاقته بالسلطة لم تكن منقطعة تماما، وإنما علاقة تقدير وثقة واحترام دون تولي المناصب السياسية واكتفى بعقد المجالس العلمية بعد إنهاء رحلته لتحصيل العلم[4]، بل وكان ينقطع عن السلطة لمدة طويلة، ولا يتواصل معها بأي شكل من الأشكال وهذا بشهادة ابنه عبد الله، فقال أن والده بقي ستة أشهر مشتغلا بالعلم فانقطع حتى على أولاده خلالها[5]. ونعتقد أن الرجل ظل متفرغا لتحصيل العلم والتدريس بتلمسان إلى غاية غزوها سنة 753هـ/1352م من قبل السلطان أبي عنان المريني[6] فاستخلصه لمجلسه العلمي وكانت له معه أحداث نذكرها لاحقا.

1- ابن مريم، المصدر السابق، ص328

2- التنبكتي، نيل الابتهاج، ص439. ابن مريم، المصدر السابق، ص314-328

3- إبن مريم، المصدر السابق، ص329

4- نفسه، ص313

5- التنبكتي، كفاية المحتاج، ص 78-ابن مريم، المصدر السابق، ص328

6- هو فارس بن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق ابا عنان لقبه المتوكل على الله، أمه أم ولد رومية، بويع في تلمسان في حياة أبيه عام 749هـ ومات مخنوقا على يد وزيره الحسن بن عمر الفردودي عام 759هـ. إسماعيل بن الأحمر، روضة النسرين في دولة بني مرين، تح عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية الرباط، ط3، 2003، ص37.

ردمد ISSN 1112-4237 الايداع القانوني Depot légal868-2003

وبعودة تلمسان إلى الحكم الزياني مجددا، استدعى سلطانها أبو حمو موسى الثاني أبي عبد الله الشريف من فاس، وسرحه حينها القائم بالأمر الوزير عمر بن عبد الله[1]. فكيف كان حاله وعلاقته بالسلطة في ظل هذا السلطان الجديد لمتميز في عمر الدولة؟

أول ما استرجع أبو حمو موسى الثاني الزياني تلمسان من يد بني مرين ونصب للحكم سنة 760هـ/1359م[2] حتى استدعى الفقيه أبا عبد الله الشريف من فاس، لأن هذا الأخير كان أوحد زمانه في العلوم العقلية والنقلية حسب ما جاء في المصادر التي ترجمت له، فبنى له مدرسة تعرف بالمدرسة اليعقوبية، شرع بالتدريس فيها في 5 صفر سنة 765هـ/1359م[3] وقبل هذا اصهره في ابنته[4]، لأن رآه أهلا لذلك، لاجتماع الخصال والأخلاق الحميدة فيه؛ إذ كان" قوي النفس بعيدها عن الطمع لا يهم برزق، زهده ومروءته ودينه معلوم، غني النفس بره، كثير النفقة"[5].

ويتضح من خلال ما سبق، أن مكانته لدى السلطان أبو حمو موسى كانت رفيعة، وحظي باحترام وثقة مطلقة، وكانت كلمته مسموعة بالبلاط الزياني، بدليل كان له الفضل في الحد

1- التنبكتي، كفاية المحتاج، ص72 –ابن مريم، البستان، ص315 .

2- يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك من بني عبد الواد، تق وتح بوزياني الدراجي، ج2، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص.97

3-ابن خلدون، المصدر السابق، مج2، 3022.

4-ابن خلدون، المصدر السابق، مج 2، ص3022. ابن مريم، المصدر السابق، ص315.

5- التنبكتي، كفاية المحتاج، ص77.

ردمد ISSN 1112-4237 الايداع القانوني Depot légal868-2003

من غضب السلطان اتجاه أحد الصلحاء الذي لم يمتثل للتنظيمات المتعارف بها في مقابلته؛ إذ لم يقبل يده ولم يبايعه، مما أثار غضبه، ولم يخفف من غضبه إلا تدخل أبو عبد الله الشريف لما عرف بالرجل وعن عاداته في مقابلة الملوك، فرضي السلطان بذلك وأكرمه[1].

وظاهرة تشفعه للفقهاء والصلحاء لدى السلطة تكررت بل كانت معهودة حتى وإن لم تسجل لنا المصادر منها الكثير، فقد" قال يوما لبعض الملوك وقد تكلم في فقيه يواليه ثم أمر بضربه، فقال له: أن كان عندك صغيرا فهو عند الناس كبيرا وإنه من أهل العلم، فنجا الفقيه من النكبة وسرح مكرما"[2]. وفي ذات السياق عنف وشدد على كبير وزراء الدولة وهو بمجلسه لطلب العلم لما لاحظه عليه من ميله على بعض الأئمة، فما كان من الوزير إلا لزوم الصمت، ومع ذلك لم ينقطع عن مجلسه[3]. وإن كانت المصادر لا تفصح عن البلاط التي وقعت فيه الحادثين الأخيرتين- أدرجنا هما لأنهما يصبا في نفس السياق- فإن للتدخلين دلالتين مهمتين، أولهما أن كلمته كانت مسموعة بل أمرا ينفد عند السلطان الزياني والمريني. وثانيهما أنه كان محبا للعلم وأهله، ميالا لهم مدافعا عنهم أمام السلطات الزمنية،

1- التنبكتي، كفاية المحتاج، ص77. نيل الابتهاج، ص438- ابن مريم، المصدر السابق، ص326

2-التنبكتي، الكفاية، ص72، نيل الابتهاج، ص438. ابن مريم، المصدر السابق، ص326.

3-ابن مريم، المصدر السابق، ص330.

ردمد ISSN 1112-4237 الايداع القانوني Depot légal868-2003

وهذا لأن كان يحضر مجلسه العلمي رجال الدولة من ملوك ووزراء، وعلماء وصلحاء[1].

لم يتوقف دور ومكانة أبو عبد الله الشريف في البلاط الزياني على ما ذكرناه، وإنما تعداه لأدوار سياسية محضة، لم تسعفنا بها كتب التراجم وإنما أشير إليها في كتب التاريخ العام على قلة هذه الأدوار وبهاتتها.

انفرد صاحب زهرة البستان بخبر سفارة أبي عبد الله الشريف إلى فاس بمعية وادفل بن عبد الله بن مسلم سنة 763هـ/1361م لإنابة السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني في إمضاء وثيقة صلح تضمنت حسن الجوار والتحالف بين الدولتين، وهذا بعدما قرأت علنا في الحاضرتين، والذي بادر بها السلطان المريني أبو زيان بن عبد الرحمن أول ما اعتلى عرش السلطة بذات السنة[2]. وفضلا عن هذا وفق في ذات السفارة من فك سجن أسرى العبد واديون من سجون فاس وتسريحهم إلى تلمسان[3].

ويبدو أنه أرسل في سفارة ثانية إلى فاس* لم تشر لها المصادر، وإنما هي شهادة السراج في فهرسته بقوله:"...حضرت

1- نفسه، ص328- 330.

2- مجهول، زهر البستان في دولة بني زيان، تح بوزياني الدراجي، ج2، مؤسسة بوزياني للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013 ص270-275

3- نفسه، 274.

* لم نعثر عن سبب هذه السفارة، ولم نجد ذكرا لها في المصادر التي أرخت للدولة الزيانية، أمثال كتاب بغية الرواد أو العبر أو زهرة البستان.

ردمد ISSN 1112-4237 الايداع القانوني Depot légal868-2003

عليه أحكام عبد الحق الصغرى والتهذيب والموطأ والصحيحين بفاس عام سبعة وستين-767 هـ/1365م- قدمها رسولا"[1].

يشير لنا صاحب البغية أن السلطان أبو حمو موسى الثاني بعث بأبي عبد الله الشريف سفيرا إلى البلاط الحفصي مع رسول الحفصيين الذي قدم تلمسان طالبا عقد صلح واتفاق سلام رهبة ورغبة سنة 764هـ/1362م. إلا أن رسول الزيانين- أبو عبد الله الشريف- لم يصل البلاط المقصود بأمر من ذات السلطان، الذي أمره بالرجوع بسبب فرار عمه محمد بن أبي سعيد من بجاية، واستقراره بفحص حمة عند شيخ عربها مشعلا نار الفتنة[2]. مما يجعلنا نعتقد أن مهمته تمثلت في طلب تسليم محمد بن أبي سعيد المعارض للسلطة الزيانية من قبل السلطة الحفصية.

وكان ثالث حدث سياسي عسكري وهو الاخير الذي أقحم فيه الفقيه المعني بالدراسة سفيرا ومصلحا كان سنة 770هـ/1368م؛ إذ بعث به السلطان أباو حمو موسى مع الوزير محمد بن عمر البريطل إلى خالد بن عامر وابنا عريف أبو بكر ومحمد (قبيلة السويد العربية) إلى فحص سيرات يعلمهم بقبول صفح السلطان بعدما خرجوا عن طاعته، وقبول طلبهم للامان مقابل إخراج أبا زيان[3] عن القطر والتخلي عن مساندته[1]،

1- التنبكتي، كفاية المحتاج، ص71.

2- يحي بن خلدون، المصدر السابق، ص278

3- هو ابن عم السلطان أبو حمو موسى، خرج عنه سنة 768هـ، وامتلك المدية وأحوازها، وسانده ووالاه عرب المنطقة سرا. يحي بن خلدون، المصدر السابق، ص363.

ردمد ISSN 1112-4237 الايداع القانوني Depot légal868-2003

قبل خالد بن عامر شرط السلطان أبو حمو وتراجع عن مساندة أبي زيان، في حين رفضا ابنا عريف الشرط[2].

كانت هذه المهام السياسية التي كلف بها أبو عبد الله الشريف من قبل صهره السلطان على الرغم من أنه لم يكن وزيرا أو قاضيا أو خطيبا في السلطة، وإنما كلف بمهام السفارة من باب أنه رجل حكمة وتعقل ومكانته مرموقة ومعروفة، وكلمته مسموعة بالغرب الإسلامي عند الخاص والعام، وبالتالي لا شك وأنه سيوفق في المهام المكلف بها.

بناء على ما تقدم، لم يكن الرجل محبا للسلطة والجاه في البلاط الزياني، بل كان رجل علم بالدرجة الأولى، ومكانته محترمة محفوظة وكلمته مسموعة، وما قام به من مهام سياسية أو شبه ذلك، فقد كانت عن طيب خاطر من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فهل الحال نفسه كان عليه وهو بالبلاط المريني؟

ب- مكانته في البلاط المريني:

يبدو واضحا أن شهرة أبا عبد الله الشريف في المجال العلمي سبقته إلى الأقطار، لذلك لما استولى أبو عنان على تلمسان سنة 753هـ/1352م استخلصه لمجلسه العلمي مع جملة من كبار مشيخة تلمسان[3]"ورحل به لفاس فتيرم الشريف من الغربة وشكى"[4].

1- نفس المصدر، ص394.

2- نفسه، ص394.

3- التنبكتي، كفاية المحتاج، ص72 . ابن مريم، المصدر السابق، ص314

4- التنبكتي، كفاية المحتاج، ص72 . ابن مريم، المصدر السابق، ص314

ردمد ISSN 1112-4237 الايداع القانوني Depot légal868-2003

والواضح أن المصادر التي ترجمت للفقيه أشارت إلى ذهاب أبو عنان المريني بأبي عبد الله الشريف مباشرة من تلمسان إلى فاس، وتأتي على ذكر مللله من الغربة، ثم ذكر أمر الوديعة التي سجن بسببها. ونعتقد في هذا أن المصادر اختصرت الأخبار السياسية للدولة المرينية بحكم اهتمامها–كتب التراجم- بالجانب العلمي أكثر من غيره.

بتتبعنا لسير حملة أبو عنان المريني بعد دخوله تلمسان لا نجده رجع مباشرة إلى فاس، وإنما توجه نحو الشرق مستكملا مشروعه وطموحه في الاستيلاء على كل المغرب الإسلامي؛ إذ توجه منها نحو بجاية ووصلها سنة 754هـ/1354م، وكان ذلك بسبب استدعاء أبي عبد الله محمد بن أبي زكرياء صاحب بجاية للسلطان أبو عنان لتسليمه أبي ثابت السلطان الزياني وابن أخاه محمد بن زيان اللذان فرا من أمام أبي عنان نحو بجاية لطلب الحماية[1]، وشاكيا له أمر الامتناع عن الجباية والسعي في الفساد، ثم عاد بأدراجه إلى تلمسان[2]. لكن لا ندري إن كان الفقيه المذكور رافقه من تلمسان نحو بجاية ومنها إلى فاس، أم أنه بقي بتلمسان ورافقه إلى فاس أثناء عودته من بجاية. فهل كان للسلطان مجلسا علميا خاصا متنقلا مرافقا له في محلاته؟

أما بخصوص أمر الوديعة، نعتقد أن السلطان علم بها بعد عودته إلى فاس فكانت سبب نكبته– سبق ذكر أمر الوديعة في علاقته بالسلطة الزيانية- ولما حرص السلطان المريني على

1- ابن خلدون، العبر، ج2، ص2787

2- نفسه، ج2، ص2927

ردمد ISSN 1112-4237 الايداع القانوني Depot légal868-2003

معرفة مضمون الوديعة ومعاتبا الشريف معاتبة شديدة على عدم رفع أمرها إليه "أمر بتقريبه ورفعه على العلماء، فأجابه بقوله: إنما عندي شهادة، فلا يجب علي رفعها بل سترها، وأما تقريبك إياي فقد ضرني أكثر مما نفعني، ونقص به ديني وعلمي، وشدد القول على السلطان"[1]، هذا الرد أغضب السلطان فأمر بسجنه شهرا[2]. وفي رواية أخرى أشهرا[3]، ونعتقد الثانية هي الصواب، ولم يفك اعتقاله إلا مطلع سنة 756هـ/1355م، وكان ذلك بعد قدوم يعقوب بن علي شيخ عرب إفريقية إليه مستفسره عن ما يقال عنه هناك، فقال كل خير باستثناء لوم العامة والخاصة عليك سجن عالما شريفا كبير القدر[4]، فسرحه وظل يعتذر له إلى أن مات[5]. ومع ذلك لم يرده إلى مجلسه العلمي بل أقصاه* وممكن هذا الإقصاء والتهميش بفاس هو الذي أشعره بالغربة والتململ منها، ولم يرد إلا بعد فتح قسنطينة[6]، وبالتالي حدث الاعتقال كان بعد الاستيلاء على بجاية وقبل سيطرته على قسنطينة سنة 758هـ/1356م. وكان تشكيه من الغربة بالفترة الممتدة من 754هـ إلى 757هـ/1353-1356م وهي سنة توجه السلطان نحو قسنطينة.

1- التنبكتي، كفاية المحتاج، ص78- ابن مريم، البستان، ص328

2- ابن مريم، المصدر السابق، ص314

3- ابن خلدون، المصدر السابق، ص3022

4- ابن مريم، المصدر السابق، ص328

5- نفسه، ص 329

* ابن خلدون، المصدر السابق، ص3022

6 - ابن خلدون، المصدر السابق، ص3022. التنبكتي، نيل الابتهاج، ص432

ردمد ISSN 1112-4237 الايداع القانوني Depot légal868-2003

بالمقابل ما يمكن الجزم به، أن الفقيه أبو عبد الله كان مرافقا لأبي عنان أثناء توجهه إلى إفريقية في حملة عسكرية، فتمكن من دخول قسنطينة سنة 758هـ/1357م[1]. وثمة نص تاريخي في غاية الأهمية يؤكد تلك المرافقة وتواجده ضمن محلة السلطان والمتمثلة في كرماته هناك بغض النظر عن صحتها من عدمها[2]. كما نعتقد أن ترك حسن بن باديس* قاضي قسنطينة قيمة مالية كأمانة عنده[3] 50 كانت في هذه الفترة.

نخلص مما تقدم عرضه، إلى أن الفقيه العلامة أبو عبد الله الشريف كان ذو حظوة كبيرة عند سلاطين تلمسان وفاس، بل تنافسوا عليه ليكون أهم عضو في المجلس العلمي الخاص بهم، وذلك نتيجة اجتهاده وعلو كعبه بالعلوم العقلية والنقلية،

1- ابن القنفد، الفارسية في مباديء الدولة الحفصية، تقديم وتح محمد الشاذلي النيفر، عبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، 1968، ص 174، 182. ابن الحاج النميري، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1990، ص293.

2- من الكرمات، اشتداد الغلاء بمحلة السلطان وهو بقسنطينة، فكانت تأتي للفقيه الأمام رسائل بداخلها ذهب. كما نجى من السيل الذي داهم المحلة وهم بقسنطينة. التنبكتي، نيل الإبتهاج، ص440. ابن مريم، المصدر السابق، ص330 .

هو أبو علي حسن بن خلف الله بن حسن بن أبي القاسم بن ميمون بن باديس القيسي القسنطيني،

* هو أبو علي حسن بن خلف الله بن حسن بن أبي القاسم بن ميمون بن باديس القيسي القسنطيني، قاضي قسنطينة ت 784-1382م . ابن قنفد، المصدر السابق، ص 376، كفاية المحتاج، ج1، ص 189

3 - ابن مريم، المصدر السابق، ص329

ردمد ISSN 1112-4237 الايداع القانوني Depot légal868-2003

لهذا حضر أكابر الملوك والعلماء مجالسه فتميزت، فقد حضروا عنه تفسير القرآن خمسة وعشرون مرة[1].

وعلى الرغم من تقريب السلاطين له، إلا أنه كان زاهدا عن أمور الدنيا، ولم يتول خطة لهم قط، فأدركت السلطتين التوجه العلمي للفقيه وهدفه في الحياة، فلم يكن كأشهر علماء عصره الذين جنحوا للسلطات لكسب رضاهم، والحصول على المناصب العالية. وتتجسد المكانة الرفيعة التي كان عليها العلامة أبو عبد الله الشريف عند السلاطين في تأسف السلطان أبو حمو موسى الثاني على موته قائلا لإبنه عبد الله"إنما مات أبوك لي لأنني أباهي به الملوك"[2].

بحق كان أبو عبد الله الشريف التلمساني من الشخصيات العلمية البارزة والمتفردة التي أسهمت في حضارة الزيانين والغرب الإسلامي عامة، ففي الفترة التي كان يحتاج المغاربة لعلماء الأندلس ويلجأون إليهم في الأمور العلمية والفقهية فقد عكس الفقيه المعنى الوضعية[3]، وبالتالي لا نساير رأي الباحث[4] الذي صنفه ضمن البيوتات الصغرى لقلة إنتاجها

1- نفسه، ص323

2- نفسه، ص331

3- كان يرسل له لسان الدين ابن الخطيب مؤلفاته للكتابة عليها بخط يده، وكان شيخ علماء الأندلس أبو سعيد بن لب، كلما أشكلت عليه مسألة كاتبه فيها يستفتيه. ابن مريم، المصدر السابق، ص 327.

4- نصر الدين بن داود، بيوتات العلماء بتلمسان، (ق7-10هـ/13-16م)، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة تلمسان، 2009-2010، ص113.

العلمي مقارنة بإنتاج البيوتات الكبرى التي عرفتها تلمسان، وهو الذي ترك ثروة علمية في مختلف العلوم والفنون والتفسير، والفقه والأصول والمنطق والجدل.

البيبليوغرافيا:

1. التنبكتي، **كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج**، دراسة وتح محمد مطيع، المغرب،1421-2000.

2. التنبكتي، **نيل الإبتهاج بتطريز الديباج**، تقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات دار الكتاب، طرابلس، ط2، 2000

3. ابن مريم، **البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان**، تح عبد القادر بوباية، دار الكتب العربية بيروت، 2014.

4. ابن خلدون، **الرحلة ضمن العبر**، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2003.

5. ابن قنفد القسنطيني، **الوفيات**، تح عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط4، 1983.

6. الزركشي، **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، تح تع محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، بلا ت، 105

7. ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، تح ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981..

8. يحي ابن خلدون، **بغية الرواد في ذكر ملوك من بني عبد الواد**، تق تح تع عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية للنشر، الجزائر، 1980.

9. مجهول، زهر البستان في دولة بني زيان، تح بوزياني الدراجي، ج2، مؤسسة بوزياني للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013.

10.ابن القنفد، **الفارسية في مباديء الدولة الحفصية**، تقديم وتح محمد الشاذلي النيفر، عبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، 1968.

ردمد ISSN 1112-4237 الايداع القانوني Depot légal868-2003

11.ابن الحاج النميري، **فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب**، محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1990.

12. نصر الدين بن داود، **بيوتات العلماء بتلمسان، (ق7-10هـ/13-16م)**، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة تلمسان، 2009-2010.